دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

توجيهات رهبانية
(١)

التحوُّلات الروحية السويَّة في حياة الراهب
ومواطن الإخفاق والنكوص

الأب متى المسكين

كتاب: **التحوُّلات الروحية السويَّة في حياة الراهب ومواطن الإخفاق والنكوص**
المؤلف: **الأب متى المسكين**
الطبعة الأولى: ٢٠٠١
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـ وادي النطرون
ص. ب ٢٧٨٠ ـ القاهرة
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠١/١١٣٨٣
الترقيم الدولي: ٩ ـ ٠٩٧ ـ ٢٤٠ ـ ٩٧٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

التحوُّلات الروحية السويَّة في حياة الراهب
ومواطن الإخفاق والنكوص

يلزم أن نتعرف أولاً على التركيب الطبيعي للإنسان الطبيعي حتى ندرك حجم التحوُّلات الروحية ومواقعها؛ وكذلك لكي نتعرف على مواطن الخلل التي يتعرض لها الراهب الذي يتغافل عن الإمساك بالحياة الأبدية، والالتصاق بالرب، والسعي المجتهد الأمين المخلص لاقتناء الروح باتضاع. لأنه عِوَض أن تحدث تحوُّلات روحية للارتقاء بالإنسان، تحدث تعويضات نفسانية خدَّاعة يقع فيها الراهب؛ حيث يظن أنها تصرُّفات روحية وهي في حقيقتها تصرُّفات نفسانية مريضة تظل تلاحقه، وقد تتطور لتصل إلى عوارض مرضية لا يصحو لها إلاَّ بعد فوات الأوان، حيث لا يسعفه لتصحيحها إلا الدواء.

التركيب الطبيعي للإنسان الطبيعي:

لن أخوض هنا في التركيبات النفسية، ولكن أكتفي بالنشاط الكلِّي للإنسان الذي يكتسبه من مصدرين:

المصدر الأول: هو ميراثه الجسدي والنفسي والعقلي الذي ورثه من أبويه عن أجداده، في عمق تركيبه الكائن في خلاياه من الموروثات المعروفة بـــ "الجينات"، والتي تعطيه

قسماً هاماً من شكله ولونه وطوله وعاداته وطباعه ومزاجه وميوله، وكثير من مَلَكَاته ومواهبه الطبيعية.

المصدر الثاني: حصيلة تربيته منذ الشهور الأولى من ميلاده في البيت ثم المدرسة ثم الشارع ثم المجتمع العام، ثم قراءاته الخاصة في الكتب وخارج الكتب: دينية وعلمية وأدبية وفلسفية، بكل مستوياتها العالية أو الهابطة.

ومن حصيلة المصدرَيْن:

تتكون الأخلاق ويتكون السلوك والعادات والمبادئ والأفكار وطريقة التعامل مع الناس ومع المشكلات ومع الله. هذا بالإضافة إلى غرائزه الطبيعية التي تعمل في أعماق كيانه وتكيِّف تصرُّفاته.

فالراهب قبل أن يترهب، يأتي إلى الدير بهذه الحصيلة التي تتحكم في حياته كلها! حتى ولو كان قد نال قسطاً من البناء الروحي في الكنيسة أو بدونها، سواء تحت إرشاد أو بدونه. لأن الإنسان، قبل الرهبنة، له وضع وكيان؛ وبعد أن يقطع في الأمر ويترك العالم ويتمم إرادته بالدخول إلى الدير، يصير له وضع آخر وكيان آخر.

فالإنسان بمجرد أن ينتهي في اختياره إلى قبول الرهبنة والدخول إلى الدير، والانقطاع عن العالم وترك الأسرة، ورفض الزواج ومعه رفض

إنجاب أولاد؛ يواجه حقائق تؤثِّر في حياته ومساره حتى نهاية عمره.

فهو يكون قد:

١. توقَّف عن السير في منهج العالم، ولم تَعُدْ القواعد الأساسية التي يخضع لها أهل العالم مُلْزِمة له؛ بل يحس في الحال أنه تحرر من قواعد وضوابط العالم والأشياء التي في العالم، من حتمية البحث عن عمل وأسرة وبيت، وحتمية حَمْل مسئوليات العمل والأسرة والأولاد، وحتمية أشكال وألوان الملبس والطعام والسكن، والادخار وحساب المستقبل، والتمشِّي مع الأعراف والتقاليد والمجاملات واسترضاء الناس والرؤساء.

٢. توقَّف عن إشباع الغرائز نحو الجنس الآخر ومشاركة الوجدان مع الزوجة وإشباع العاطفة نحوها.

٣. توقَّف عن إشباع الغرائز نحو الأولاد وإفراز الحنان والعاطفة الأبوية نحوهم.

٤. توقَّف عن إشباع الغرائز الشخصية نحو مشاعر الأُبوَّة في حَمْل مسئولية الأسرة وطبيعة البذل والخدمة لصالح الأسرة.

٥. توقَّف عن إشباع الغرائز الشخصية نحو توريث الشخصية وتخليدها في الأبناء بعامل حب البقاء.

هنا الحدّ الفاصل بين:

أ ـ إمَّا الارتقاء بهذه الغرائز لتتحوَّل إلى عوامل روحية، هي في حقيقتها مواهب الإنسان الجديد التي تبدأ عملها، ليس لحساب الذات وإشباع غرائزها من كل الأنواع؛ بل لحساب الله والروح؛ الأمر الذي يرتد على النفس بالفرح والسعادة والرضا حتى الشبع والملء. كذلك تبدأ المواهب تعمل، ليس لحساب أعضاء أسرة محدودة من زوجة وأولاد؛ بل لحساب الإنسان عامة دون تمييز، أيًّا كان وأينما كان، ولا تفريق قط بين أهل وغرباء.

ب ـ وإمَّا الإخفاق في التحوُّل الروحي الذي يتم عن طريق التسليم الكلِّي بلا قيد ولا شرط لعمل الروح القدس ولتدبير المدبِّر الروحي، حيث يحدث أن تلتجئ **النفس** إلى عملية تعويض عن كل توقُّف لنوعٍ من الغريزة **بتعويض بشري** يُشبع غرائزها شبعاً مزيَّفاً خاطئاً يحرفها عن المسار الروحي، فتسير في التيه، وتبدأ سلسلة الانحرافات:

الانحراف الأول: تجاه العالم والمجتمع:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

الراهب الذي يخفق في أن يمسك بالحياة الأبدية منذ اللحظة الأولى من دخوله الدير وباستمرار وبلا انقطاع، ولا يسعى بكل قوته للالتصاق بالرب؛ يبدأ ـ عند أول شعوره بالانقطاع عن العالم ـ بمحاولة عمل جسور مصطنعة، ويمدُّ خطوطه بلهفة للاتصال بالأهل والأقارب

والأصدقاء، وذلك بشتى الطرق: إما بالخطابات، أو الرسائل الشفوية، أو بالسعي لرؤية كل مَنْ يأتي سواء لزيارته أو حتى لزيارة الدير؛ فيهرع بلهفة وإصرار مريض لمقابلته، ويتعوَّق في الجلوس معه ويتمنى لو يبقى طول النهار أو يبيت، ويتمنى – في ضميره – لو ينزل هو معه.

فإذا اعترضته معوِّقات، إما استحياؤه هو من مثل هذا التصرُّف، أو اعتراض المدبِّر خوفاً وإشفاقاً على مسيرته حسب نصائح القديسين السابقين وتدبير الدير؛ فإنه يظل في قلايته قلقاً وينعكس ذلك على أحلامه المزعجة بصنوف وألوان شتَّى من صُنع النفس، وكأن أهله يبكون عليه وينوحون، أو أنهم مرضى وعلى شفا الموت، يتوسلون إليه بالرجوع، أو بأحلام مُفزعة من صُنع نفسه أيضاً بأنه مرفوض من الدير، أو أن حياته في الدير معرَّضة للخطر. وهكذا لا تكفُّ النفس عن أن تلعب دورها **انطلاقاً** من إحساسه بالحرمان من العالم **نتيجة** لقراره بالتخلية والترك دون أن تسنده سرعة الإمساك بالحياة الأبدية والالتصاق الدائم بالرب، لقبول مواهب الروح التي ترفعه فوق هذه الأعراض والخزعبلات التي تنسجها النفس.

وهكذا يمكن أن يستمر الراهب في هذا الفراغ الروحي، طالما هو مستمر في **عملية تعويض الحرمان البشري بالوسائل البشرية**، من خطابات وزيارات ورسائل شفهية وملء العين والأُذن بأشكال وأحاديث الزائرين، فتتوقف روحه عن النمو وتتعثر في الطريق، دون أن تبلغ إلى التحوُّل الروحي الذي ينتظرها.

ويرافق مثل هذه الحالة ردود فعل داخلية في النفس، من حيث السكن والأكل والشرب والملبس واحترام القوانين المرعية والسلوك العام في الخارج والداخل، أي داخل قلايته، حيث تكون كلها ردود فعل يحكمها محاولة تعويض الحرمان الذي قطعه على نفسه بتعويض بشري.

فيبدأ يطلب سكناً أفضل أو يحاول أن يجمِّل مسكنه ويُزيِّنه، ولا يكاد يمسك بطنه فيميل إلى النهم وتعدُّد ألوان الطعام وبأن يضيف إليه ما يزيده شهوة. ويطلب المزيد، وإذا تعذَّر ذلك، فلا مانع من السرقة. وهو لا يشعر بتأنيب الضمير، لأنه مقتنع بأنه محروم. فهو يُعوِّض ما حُرم منه مع أنه هو الذي قطع على نفسه بالحرمان، إنما على أساس التعويض الروحي لا البشري المادي. ويبدأ الراهب يتفنن في إعداد طعامه، وإذا استمرأ هذا دون مراجعة الضمير، يبدأ يدعو غيره ليُشاركه مسرة الأكل والشهوة تعويضاً عن شعوره بالحرمان من جو الأسرة.

وحتى الملبس يحاول أن يضيف عليه أو يختزل منه أو يُغيِّر لونه، حتى ولو كان أكثر جرباً، أي أن لونه قد اختزله الغسيل أو الشمس، فهو يرتاح للتغيير على أي وجه، لأن ذلك يعوِّضه عن الحرمان الذي قطعه على نفسه. ولا تنتهي سلسلة التعويضات، بل تزداد على مدى حياته، وأكثرها خطورة وأكثرها راحة لنفسه هو الخروج عن التقليد والعُرْف الرهباني وعادات الدير، حتى داخل الكنيسة، فهو لا يرتاح للوقوف في الصف أو التقدُّم أو الخروج بالترتيب، لأن الالتزام بالقانون الديري يشكِّل في داخله إحساساً بالحرمان من الحرية، فيعوِّضها بكسر القانون والعُرْف

والتقليد، ويجد في ذلك راحة لنفسه إذ يُشكِّل ذلك تعويضاً لِمَا تركه، مع أن أساس الترك هو قبول عطية الروح: «مَنْ ترك... يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية.» (مت ١٩:٢٩)

الانحراف الثاني: الحرمان من زوجة:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

تبدأ التجربة منذ أول يوم يدخل فيه الإنسان الدير. فإذا لم يرتفع منذ أول لحظة طالباً وجه الله، ويرسخ في نفسه الشعور بأنه ترك الالتصاق بامرأة ليلتصق بالرب ليصير معه روحاً واحداً، رافعاً قلبه نحو هذا الهدف ليستقر في الشعور واللاشعور؛ أقول: إذا لم يُنفِّذ ذلك، فإنه يتعرض لحركة اللاشعور النفسية في الداخل، فتبدأ أحلامه الجنسية تزعجه إذ تنشط غرائزه الجنسية كردِّ فعل للقطع الذي قطعه على نفسه دون أن يمسك بالرب في المقابل. فالغرائز تقف محتجة تُطالب بما لها، وهكذا تضغط عليه الأحلام الجنسية، وما يتبعها من احتلام متكرر مزعج. كل هذا يدخل في عملية التعويض البشري، إن لم يكن بالشعور في اليقظة فبواسطة اللاشعور في النوم.

والراهب مسئولٌ عن هذا، لأن القانون الذي سيحكم حياته كلها هو هكذا: إما تحوُّلٌ للحياة حسب الروح بالتسليم الكلِّي لله والصلاة والصوم والسهر والقراءة والشركة مع المسيح في اتصال دائم؛ وإما إحساس بالحرمان والاتجاه للتعويض عن الحرمان البشري بعمل بشري. أي: إما تحوُّل بالروح، وإما تعويض بالجسد.

وليس كل الحرمان من الزوجة هو غرائز جنسية، بل وعاطفة أيضاً. فالراهب الذي يخفق في أن يُقدِّم عواطفه للمسيح في التصاق حقيقي بالحب وتقديم كل الجسد والفكر ذبيحة عقلية، تبدأ عواطفه تسوقه يميناً ويساراً يطلب أن يُشبعها. فيبحث وسط الرهبان فيمَنْ يُبادله هذه العاطفة، فتبدأ صداقة وهمية كاذبة بنوع صداقة لا ريب فيها، وهي في الحقيقة صداقة تعويض قائمة على أساس تبادُل عواطف زوجية، اتجاهها الأصلي إما لزوجةٍ وإما للمسيح: «فإني أَغار عليكم غيرة الله، لأني خطبتكم لرجل واحد، لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح.» (٢كو ١١:٢)

وهكذا، فإن عملية التعويض هي عملية حتمية لكل مَنْ يخفق في أن يشبع بالله ويفرح ويمتلئ من روح الله بدوام الوجود في حضرته، والحديث إليه والتطلُّع إليه بالروح لملء كل فراغ يحسُّه الإنسان في داخله.

الانحراف الثالث: الحرمان من الأولاد:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

يأتي الإنسان ليترهب وقد ترسَّخ في الشعور واللاشعور أنه سيُحرم من الأولاد، وهو يستهين بهذا الأمر؛ ولكن الشعور قد يجيز ذلك، أما اللاشعور في أعماق النفس فيحس بالحرمان. وهنا يبدأ يتعرض الراهب لتعويض هذا النقص أو الحرمان إذا لم يسعفه الروح بالتحوُّل من الرزوح تحت مشاعر النفس إلى الارتقاء نحو الروح، لأن الإنسان الروحاني لا يشعر بالحرمان من شيء قط إذ أن الشبع بالرب يغطي حاجات النفس بكل مطالبها. فالإنسان خُلق وحيداً في الأصل ليعيش مع الله.

وإذ يستسلم الراهب للإحساس بالحرمان من الأولاد، حتى ولو لم يطفو هذا الإحساس إلى حيز العقل والانتباه، فإنه يبدأ بالاقتراب من الأولاد والتودُّد إليهم، ويكون في الأول ضابطاً لنفسه في إحساس البراءة بشعور التبنِّي، ولكنه يُفاجَأُ بالانجذاب الشديد نحوهم ومحاولة محاباتهم والدفاع عنهم والتودُّد إليهم بالهدايا والطعام، وإذا لم يسعفه المسئول يأخذ ما يشاء – وهو غير مسموح به قانوناً – فلا مانع من السرقة ولا يلومه ضميره، لأنه يشعر شعوراً كاذباً وخاطئاً أنه يعطف على أولاد محرومين، مع أنه هو الذي يعطف على نفسه لشعوره بالحرمان. ولا مانع من أن يزداد تودُّده إلى مَنْ تسوقه العاطفة إليه بسبب شكله الحلو أو صفاته الأنثوية، وهنا تكشف العاطفة عن خداعها إذ تبدأ الشهوة الجنسية تثور فيه، ويبدأ الراهب يُكثر من التودُّد إلى مَنْ ينجذب إليهم جنسياً، وهو يحسُّ بهذا، ولكنه يكون قد انسرق من العدو وأطاع النفس المريضة.

وهنا ينكشف تماماً وبوضوح أن الراهب ليس مؤهَّلاً للعطف على الأولاد لأنه حتماً سينغلب من الإحساس بالحرمان، فتصبح العلاقات قائمة على أساس التعويض البشري، وهذه تقف سدًّا منيعاً نحو التحوُّل الروحي للراهب سواء انقلبت إلى ميل جنسي – لا يعرف أحد إلى ماذا ينتهي إلاَّ الله – أو بقيت في حدود إشباع العاطفة الدفينة التي لم ترتقِ إلى الروح. أما الراهب الروحاني **فلا يستطيع** التودُّد للأولاد ولكنه يتعامل معهم، إن كان قد وُضع عليه أن يتعامل معهم – وهذا خطأ – على

أساس أنه واجب ثقيل وخطر يُنفِّذه بصرامة!!

الانحراف الرابع: الحرمان من لذة مسئولية العمل والبذل كطبيعة ربِّ العائلة:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

الإنسان خُلق ليعمل أصلاً وفي البداية، ثم تحدَّدت هذه الغريزة لتتجه نحو الأسرة. من هنا تبدأ غيرة الأب على العمل والبذل كطاقة غريزية لا يرتاح حتى يُشبعها ويُسَرُّ ويرتاح حينما يرى نتائجها في نجاح عمله. الراهب دخل الدير وفيه هذه الطاقة، ولكنه جاء ليُسلِّمها إلى الله والمدبِّر للدير ليوجِّهها لتعمل بحسب الروح لاسترضاء وجه الله ولراحة الجميع بلا تمييز، لأن نفسه غير محسوبة عنده وهدفه غير بشري ولا ينحصر في عملٍ ما ولا في أشخاصٍ معيَّنين. ولكن إذا أخفق الراهب في أن يتحوَّل إلى إنسان روحاني، **فإن طاقته في العمل والبذل تسعى لتجد تعويضاً لإراحة نفسه،** كما تجتهد غاية الاجتهاد أن ينال استحساناً من الذين يخدمهم ويبذل من أجلهم. من هنا يبدأ الراهب بنشاط زائد في بعض الأعمال التي يستحسنها لتعود عليه بالراحة النفسية وتنال نجاحاً واستحساناً من الآخرين وإلاَّ فلا عمل على الإطلاق!! فإذا ألحَّت الظروف على العمل الاضطراري وغير المرغوب فيه، يكون هناك الغضب والحبس في القلاية والادِّعاء الكاذب بالمرض، وكل هذا ولا يشعر الراهب أنه أسير توجيهات نفسه المريضة التي انحبست في دائرة ما يُريحها ويُشبعها ويعوِّض حرمان

غرائزها. وهكذا تنفضح النفس البشرية التي أخفقت في أن تتحوَّل إلى نفس روحانية سلَّمت ذاتها إلى الله ولتدبير مَنْ يدبرها لتعمل وتنمو حسب مشيئة الله، وليس حسب مشيئة ذاتها.

وليس من الصعب التفريق بين عمل وبذل وجهد معمول بالروح بلا حدود ولا قيود ولا عِوَض ولا هدف إلاَّ محبة المسيح، وعمل غير خاضع للتدبير العام تشوبه مشيئة الشخص واختياره وتحديده، وكأنما العمل يخصُّه هو وتعود الفائدة عليه هو ولراحته ورضا نفسه وفي دائرة قناعته. وهذا هو شكل وحدود العمل بحسب الطبيعة الأصلية ودوافع الغريزة عند رب الأسرة، لم يستطع الراهب أن ينسلخ عنه ليرتقي إلى مستوى العمل والجهد والبذل بحسب الروح.

وبستان الرهبان لم تَفُتْه هذه اللفتة، فهو يصف الراهب الواقع تحت هذا الشعور بأن شيطان العمل يقف بجانبه ويقول له: اجتهد اجتهد بزيادة، فسوف يُعجب بك إخوتك؛ وهكذا يزيد من حماسه حتى يستهلك عافيته. وهكذا يوضح البستان أن هناك اجتهادًا سويًّا بحسب التدبير وبمقتضى التكليف، واجتهادًا آخر مريضاً يعمل لحساب الذات وينفخ فيه الشيطان.

الانحراف الخامس: الحرمان من توريث الذات وخلودها في البنين:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

هي غريزة الحياة وامتدادها عَبْرَ الأجيال. فالأب يحمل غريزة توريث شخصيته في أبنائه، والأبناء في الأحفاد؛ وهكذا تمتد الحياة

وتستمر على الأرض. ولكن هذه الغريزة يتفاوت عملها وتتفاوت شدَّتها من شخصٍ لآخر.

الراهب يدخل الدير وهو يعلم أنه لن يورِّث ذاته من خلال البنين، وهو لا يشعر بأي حرمان في ذلك، ولكن كيانه النفسي والغريزي يواجه هذه الحقيقة **كلما امتد به العمر**، ويبدأ العمل لتعويضها دون أن يشعر بأنه يقوم بعملية تعويض بشرية، وذلك إذا لم ينجح في الاتصال والاتحاد بالمسيح والتحوُّل من إنسان جسدي يورِّث الذات بالجسد إلى إنسان روحي متَّحد بالأبدية والخلود ولا يعوزه تخليد لذاته على الأرض: «مَنْ لي في السماء، ومعك لا أُريد شيئاً في الأرض. برأيك تهديني وبعد إلى مجد تأخذني. قد فَنِيَ لحمي وقلبي. صخرة قلبي ونصيـــبي الله إلى الدهر.» (مز ٧٣: ٢٥و٢٤و٢٦)

فإذا أخفق الراهب أن تكون سيرته في السموات فعلاً، وقلبه يختبئ في صخرة الله، فإنه يحاول أن يُقرِّب إليه بعض الرهبان بصورة مُلحَّة، يتودَّد إليهم ويخدمهم ويحيطهم بعنايته حتى بالأمور الجسدية بطرق مشروعة وغير مشروعة ويتفانى في حبهم والعطف عليهم؛ تماماً كصورة الأب الذي يعطف على أولاده بدرجة جنونية فيها كل أنواع التضحية والبذل، وذلك يكون لاشعورياً كمحاولة من الذات لتخليد نفسها وفكرها ومبادئها فيهم، محاولاً طبع شخصيته عليهم كمَنْ يُورِّث صفاته. وهذا يُحسب عملاً بشرياً، خاصة إذا لم يكن الراهب قد كُلِّف بذلك. علماً بأن رسالة الدير ليست رسالة تبشيرية ولا

رسالة خلاص، لأن هذه مفروض أن الرهبان جميعاً على مستواها؛ بل الدير موضع الصلاة الدائمة واكتساب الحكمة.

الانحراف السادس: الإخفاق حتى في التعويض البشري:

الحرمان البشري وتعويضه بوسائل بشرية نفسانية:

إذا لم يستطع الراهب أن يُخضع ذاته للمسيح ليعيش بالروح ويتغيَّر عن شكله بتجديد ذهنه، وإذا لم يستطع أن يخضع للتدبير الروحي وطاعة المرشد ليوصِّله إلى طاعة المسيح ليحيا حسب الروح، ثم إذا أخفق أيضاً في التعويض عن حرمانه الذي فرضه على نفسه من جهة العالم والزوجة والأسرة والأولاد بالطرق البشرية التي سبق وأوجزناها، بمعنى أنه:

أ ـ لم يستطع أن يُعوِّض عن حرمانه من العالم باستعادة اتصالاته بالعالم بالوسائل البشرية من رسائل ومقابلات؛

ب ـ ولا استطاع أن يُشبع غرائزه وعواطفه كتعويض عن الزواج أو حتى يضبط نفسه؛

ج ـ ولا استطاع أن يُعوِّض عن غريزة الإنجاب وحنان الأولاد بالتقرُّب غير المشروع للأولاد ومداعبتهم؛

د ـ ولا العمل يجاء على كيفه، كما أَمْلَتْ عليه غرائزه ليُعوِّض عن حرمان مسئولية رب العائلة وكفاحه؛

هـ ـ ولا وجد مَنْ يُخلِّد نفسه فيهم لتمتد جذوره عَبْرَ الزمن حسب طبيعة الإنسان.

إزاء هذا العجز كله أو واحد منه، يبدأ الراهب في الانعزال كردِّ فعلٍ

للإخفاق في التعويض، وهذا يُعتبر سلوكاً احتجاجياً من النفس دون أن يستطيع الراهب فهمه أو التعبير عنه، فهو يلجأ إليه وكأنه اضطراري – فإذا لم يسعفه المرشد الحكيم ليوضِّح له خطورة التمادي في العزلة وما تنتهي إليه من طمس معالم المَلَكات وإضعاف الانطلاق في السعي الروحي السليم، فإنَّ الراهب يستقر في ذهنه أنه سينجح في العزلة والتوحُّد. ولكن يكاد يكون من المقطوع به أن كل اعتزال أو توحُّد نتيجة إخفاق، مآله الفشل. لأن العزلة والتوحُّد في الحياة الرهبانية يأتيان في قمة نجاحات الراهب في كل مراحله السابقة وكحصيلة لها جميعاً.

وطبيعي أن كل ردِّ فعلٍ للفشل هو التمادي في الضعف وليس لاكتساب قوة أو تجديد، لهذا فإن الذي يتمادى في العزلة بهذا الوضع نصيبه الكآبة، وتبدأ نفسه تمرض. وهذا ما نراه يتكرر أمامنا على مدى الأيام والسنين.

ولكن ما أسهل أن يواجه الراهب نفسه بإخفاقه، على ضوء هذه الحقائق والإنجيل، ويأخذ نفسه بالشدة ويعاود طلوع السلَّم الرهباني من جديد، وهذه نصيحة الآباء العِظام. إن الراهب الحقيقي هو مَنْ يعتبر نفسه كل يوم مبتدئاً جديداً، وطوبى للراهب الذي يعيش على الدوام بروح اليوم الذي دخل فيه الدير.

✞ ✞ ✞

التحوُّلات الروحية السويَّة
في حياة الراهب الخاضع للنعمة

ندرس هنا كيفية نصرة الدعوة الروحية التي دُعِيَ إليها الراهب من الله (وليس من فم إنسان)، وكيف يعمل الروح القدس في رفع الإنسان من تحت جذب الغرائز الطبيعية، ليرتقي به فوق العالم والأُسرة والزوجة والأولاد وحب البقاء وتخليد الذات التي يوازنها المسيح نفسه في حالة الترك الصادق الأمين لها بالنسبة لقوة رفع الروح نحو السماويات وجذب الله بنسبة ١:١٠٠.

والمسيح يوضِّح كيفية حدوث هذه النصرة وكيفية تسلُّح الإنسان إزاء مجاذبات العالم والشهوات التي فيه هكذا: «فأقيموا في مدينة أُورشليم إلى أن تُلبسوا قوة من الأعالي»، ومرة أخرى: «لكنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم» (لو ٢٤:٤٩، أع ١:٨). وهذا النموذج العالي يترجمه القديس بولس الرسول ليكون على مستوانا هكذا: «لكي يعطيكم بحسب غِنَى مجده، أن تتأيَّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليَحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تُدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو (أبعاد الحياة الجديدة مع الله).» (أف ٣:١٦-١٨)

إذن، فالتحوُّل يقوم أساساً على نيل قوة من الله قد وعد بها كلَّ مَنْ يريد أن ينضم إلى جميع القديسين، وهذه القوة يلزم أن نترقبها بالصلاة والخضوع للروح بتسليم كلِّي وثقة وإيمان. ولكن هذه القوة ليس لها مفاعيل محسوسة ولا منظورة لأنها تستقر – كما يقول القديس بولس الرسول – «في الإنسان الباطن»، ولكننا نحس بعملها في ازدياد محبتنا وقُربنا من المسيح ورسوخنا وتأصُّلنا في الطريق.

هذه القوة هي التي تسمو بالغرائز دون أن تلغيها، لأنها قوة متعددة العمل والصفات لتناسب كل أعواز الإنسان، تضبط غرائزنا وتُوَجِّهها لحساب الروح كلجام في فم حصان، فلا تعود تجمح بنا الغرائز بل تُسيِّرها النعمة، مرغمة في البداية ثم طائعة ثم فَرِحَة، حتى ليكاد الإنسان ينخطف من الخفة وراء الروح.

أما كل المناقص والحرمان الذي نشأ عن تركنا العالم ومَنْ فيه، فتصير هي عينها سبباً لازدياد الحرارة التي تدفعنا في الطريق، إذ يقول عنها المسيح إنه تَرْكٌ وحرمان «من أجلي ومن أجل الإنجيل» (مر ٨:٣٥). هنا يضع المسيح نفسه ويضع إنجيله في مقابل ما تركناه وحرمنا غرائزنا منه.

إذن، فالمسيح هو التعويض الصحيح، وهو ضمين لذلك. كذلك يضع المسيح الإنجيل معه في هذا الضمان، حتى نجد شيئاً في أيدينا نمسك به لتحقيق هذا الوعد. إذن، فضمان رهبنتنا هو تعلُّقنا بالمسيح شخصياً، وتمسُّكنا بالإنجيل الذي بين أيدينا. وهكذا، بالمسيح

والإنجيل، نخطو في طريقنا من تحوُّل إلى تحوُّل حتى النهاية.

١. التعويض الروحي عن تَرْك العالم:

التحوُّل الأول، وهو في الحقيقة ليس تعويضاً؛ بل هو ارتقاء:

الراهب حينما يدخل الدير - والعالم حقيقة خلف ظهره - تستقبله الملائكة وأرواح القديسين، كعضو جديد في رعية القديسين وأهل بيت الله. لقد ترك الراهب عالماً ليدخل عالماً آخر، بكل المعنى الحرفي والعملي، وبقدر ما يملأ عينيه وقلبه وروحه من هذا العالم الجديد، شاكراً مُسبِّحاً فَرِحَاً، بقدر ما يصغر العالم الذي تركه ويتلاشى، ويضعف جذبه حتى يتلاشى من قلبه. وبقدر ما يشبع من خيرات ودسم بيت الله، بقدر ما تُسوَّى في أعماقه قضية الحرمان مما تركه، دون ارتباك، وهذا هو شغله الشاغل كل يوم.

أما مفاعيل النعمة في الحياة الجديدة، فتعمل بقوة خفية من جهة الأهل والأقارب والأصدقاء وبقية المظاهر الاجتماعية، فتحس النفس وكأن فاصلاً عميقاً بدأ يفصلها عن الجميع، إذ أصبحت تابعة لعالم آخر ووطن آخر وأهل بيت آخر، وكأنها سماء جديدة وأرض جديدة، والمسيح مركز لها جميعاً. فلا يعود الراهب قادراً على أن يجمع بين القديم والجديد، لا من داخله ولا من خارجه، يعزف عن الوجود بين الناس، لا لأنه أخفق أن يحقق وجوده؛ بل لأنه يحيا وجودًا آخر روحياً يملأ عقله وفكره وحواسه، ويُشبع نفسه شبعاً لا يستطيع أن يضيف إليه شيئاً مما كان له. هنا تحقيق الوجود الروحي للإنسان ينبع من

وجوده مع المسيح في الحياة الجديدة، فلا يعود الراهب يشعر بأي حرمان أو نقص، ولا يعود يلتفت إلى وراء، فهو مشغول برؤية أمامية بعيدة جداً يكاد لا يخفض بصر عقله وقلبه عنها. وكلما قطع شوطاً إلى الأمام في سعيه الروحي بالصلاة والصوم والعبادة والسهر والقراءة، كلما ازدادت الرؤيا بُعْداً وانخطف قلبه وراءها، يسعى بلا شبع.

العالم الأرضي هنا، بأهله وسعيه وأخذه وعطائه، يصغر جداً عند الراهب المسافر إلى وطنه السماوي. فهو كلما سار إلى الأمام كلما خلَّف وراءه العالم كدائرة كونية تصغر وتصغر في فكره وقلبه ومخيلته وأحلامه، حتى يفقد العالم وجوده كعامل مؤثِّر في حياة الراهب.

فإذا تواجد الراهب، وهو في حالة نشاطه وسعيه الروحي هذا، بين أهل العالم؛ فلا يعود قادراً أن يُفرِّق بين أقرباء وأصدقاء وغرباء، وكلُّ همِّه أن لا تتعوَّق مسيرته أو تزلّ عيناه أو أن يتذكَّر ما مضى أو ينظر إلى ما فاته؛ بل بالعكس يحاول أن يحمل الناس من حوله ليروا ما يراه، ويكتشفوا ما اكتشفه، ويفرحوا بما يفرح به، ويشبعوا مما شبع به هو في عالمه الجديد. وهيهات! فلكل دعوة رؤيتها وفرحتها وشبعها على قدر تركها وتعفُّفها وسعيها؛ وإذ يتيقن هذا بعد خبرة وتجربة وعثرة، يقنع بسرِّه ويخفي سيرته وينشط في مسيرته، غير ناظرٍ إلاَّ نحو جعالته العُليا، متذكِّراً قول الرب للذي طلب منه أن يودِّع أهل بيته أولاً، أنه لم يَعُدْ يصلح لملكوت الله.

الراهب المسافر إلى وطنه لا تشغله هموم العالم عن سعيه، لا يختار

لنفسه أين يسكن، ولا يفرح بمكان على مكان آخر؛ بل إنَّ كل سكن يحلُّ فيه يجده أوسع من الدنيا كلها، فهو أرضه الجديدة التي يسكن فيها البرُّ، وسماؤه الجديدة التي لا تحيطها جدران. فتصبح قلايته فردوسه الجديد، تملؤها سحابة الشهود الذين يقرأ عنهم ويأخذ منهم ويسمع لهم. فهؤلاء هم أهله الجدد، أهل بيت الله. وما قلايته إلاَّ بيت إيل الجديد، حيث أعوان الخلاص من ملائكة وأرواح أبرار في خدمته في ضيقه وفي عزائه لفرحة وبهجة قلبه.

وهو لا يختار لنفسه ما يلبس، فكل ما يُعطَى له هو هو عطية الله، لباس العُرس بعينه، لا يختار ولا يُفضِّل، ولا يطلب لنفسه. لا ينسى قط ما ألبسوه يوم زفافه للمسيح عند قبول تقدمة حياته على مذبح الله حيث الصوت الإلهي: «فأجاب (الملاك) وكلَّم الواقفين قدَّامه قائلاً: انزعوا عنه الثياب القذرة. وقال له انظر: قد أَذْهَبْتُ عنك إثمك، وأُلبسك ثياباً مزخرفة. فقلتُ: ليضعوا على رأسه عمامة طاهرة. فوضعوا على رأسه العمامة الطاهرة وألبسوه ثياباً، وملاكُ الرب واقفٌ» (زك ٣:٣-٥). هذه هي ثياب الراهب غير المنظورة، والتي لا يشتهي الراهب الذي أُنعم عليه بها أن يلبس فوقها، فهي زينته التي تزيَّن بها، المحفوظة له ليُقابل بها الرب في يوم مجيئه العظيم. لا يملأ عينه سواها، وكل ما يوضع فوقها يتلاشى ولا يُحسب شيئاً.

الراهب المسافر طعامه سماوي يغتذي به سرًّا، فهو زاد الطريق الذي يعطيه حرارة وقوة للمسير؛ أما أطعمة الجسد فلا تُحرِّك شهوته. أفخر

ما فيها يتحوَّل في حلقه إلى مرارة، إذ يُذكِّره بخبز الشهوة الذي ملأ جوفه وأحزن روحه، وبأكلة العدس التي أكلها عيسو فأضاعت بكوريته وسرقت توبته، التي طلبها بدموع فلم يجدها؛ لأن خبز الشهوة لا يستقيم مع دموع التوبة. الراهب الذي يحيا بالروح، يأكل مع كل لقمة نعمة، ويشرب الروح مع شُرب الماء، فلا يعود يميِّز بين اللذيذ والخسيس، لأن مذاق الروح يفقد مذاق الحلق، وملء النعمة يكفي مع الفتات لملء البطن. وكلُّ ما يُقدَّم له يأكله كما من يد المسيح، فيصير له بركة.

الراهب المسافر يرقد كما يرقد المسافر، كمعلمه ليس له أين يسند رأسه، لا يطلب راحة لجسده، لأن الذي ارتاحت روحه فيه ينسى ما هو للجسد، وإذا استيقظ يعرض نفسه ليستأجره أحد!! وأسعد ساعاته أن يقف في الصف بين الفَعَلَة إخوته لعلَّه يأخذ دیناره، حتى ولو كان آخرهم، لأنه واثق من صلاح معلِّمه الذي يُعطي البطَّالين أصحاب الساعة الأخيرة من غناه قدر ما يعطي الذين شَقَوا من أول النهار. يسمع توصيات المدبِّر للدير ويحفظ الكلام في قلب جيد ليعمل حسب الوصية، فيثمر عمله بالطاعة ويأخذ أجرين: أجر العمل الجيد، وأجر الطاعة الحميدة. شهوة قلب المسافر أن يسمع أخبار الأولين ليحذو حذو سيرهم، حسب التدبير، حتى لا يخرج عن شكلهم، ليُحسب من زمرهم. يسأل عن التقليد ولا يحيد عنه حتى لا يتوه منه الدرب الضيق الذي سارت عليه الأجيال السعيدة وعبروا عليه من

باب المحن بلا تذمُّر، فحُسبوا أهلاً للنجاة، وجاءهم العون من الأقداس العُليا في حينه الحسن.

٢. التعويض الروحي عن تَرْك الزواج:
وهذا أيضاً ليس تعويضاً؛ بل ارتقاءً:

الزواج متعة ذاتية، وراحة نفسية، وتسلية دنيوية، ومسئولية بشرية، وشركة حياتية، وأمانة خُلُقية، وسر الكنيسة للوحدانية **الجسدية**. وهو اقتسام اللقمة والفكرة والمسئولية لقيام الأسرة وتربية الخِلفة. وحينما استصعب التلاميذ التدقيقات التي وضعها الرب من جهة الزواج وقالوا له: «إن كان هكذا أَمْر الرجل مع المرأة، فلا يوافق أن يتزوج»! فقال لهم: «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام (أي عدم الزواج) بل الذين أُعطِيَ لهم، لأنه يوجد خصيان وُلِدوا هكذا من بطون أُمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم (جعلوا أنفسهم خصياناً) لأجل ملكوت السموات. مَن استطاع أن يقبل فليقبل.» (مت ١٩: ١٠-١٢)

الراهب ليس كالجميع، "فهو قد أُعطِيَ" له أن لا يتزوج، حسب نص تصريح المسيح. كذلك استطاع أن يجعل نفسه خصياً أو كالخصي، أي لا يطلب امرأة ولا يشتهيها، مُفضِّلاً أن يحرم نفسه وجسده من كل مميزات الزواج من أجل مميزات ملكوت الله، لا خوفاً من التعارض ولكن خوفاً من التعويق، هذا ما يدلُّ عليه فكر المسيح.

أما القديس بولس الرسول فوضعها هكذا بنوع واضح: «مَنْ زَوَّج فحسناً يفعل، ومَنْ لا يُزَوِّج يفعل أحسن» (١كو ٣٨:٧). هنا الأفضلية جاءت بحسب فكر بولس الرسول لكي يكون اهتمام الإنسان كله للرب.

أما السر الكنسي الذي يهب الرجل والمرأة في الزيجة المقدسة جسداً واحداً، فقد عوَّضه الراهب بسر الروح القدس الذي يجعل مَنْ يلتصق بالرب **روحاً واحداً!!** كقول القديس بولس الرسول: «وأما مَنْ التصق بالرب فهو روح واحد.» (١كو ١٧:٦)

الراهب إنسان يسعى بالروح وليس بالجسد، فتَرَكَ الزيجة لأنها تخص الجسد والعالم، وسَعَى بالروح ليلتصق بالرب ليصير في زيجة روحية مقدسة لا يفصمها عالم ولا جسد ولا زمن، تُزيدها الضيقات التصاقاً، وهي شركة حقيقية بالروح فيها كل مسرات الروح وعزاء النفس.

الراهب الذي التصق بالرب لا ينظر إلى امرأة بعد، لئلا يكون قد زنا مرتين: بالجسد في القلب، وبالروح سرًّا لابتعاده عمَّنْ التصق به، أي المسيح!! علماً بأن كل ابتعاد عن الله من أجل استرضاء الذات هو زنا بالروح حسب الكتاب.

الراهب لا تموت غرائزه الجنسية، ولكنه يُقمعها بالروح بحضرة النعمة وباستحضار وجه المسيح المضيء ليطفئ لهيبها، لأن الله نار

آكلة، ولا يُطفئ نار الشهوة إلاَّ نار الله لأنها أقوى منها. وبعد أن يقمعها يسهر على **قلبه** حتى لا تشدّه الغريزة في غفلة منه، فيميل نحوها فتبرد نار الله من قلبه.

الرهبنة، كالتصاق بالرب، هي **عطية**، أي **موهبة**، حسب قول الرب: «الذين أُعطي لهم». والموهبة تحتاج إلى إضرام: «فلهذا السبب أُذكِّرك أن **تُضرم** أيضاً **موهبة** الله التي فيك» (٢تي ١:٦). والإضرام هو ما يختص بالنار. إذن، فالموهبة حرارة من الله تحتاج إلى إضرامها وإلهابها، ولا يلهب النار الإلهية إلاَّ الصلاة والدموع وقرع الصدر مع الصوم والصبر العظيم في الوقوف على باب الله والقرع مع الصراخ ليل نهار. لأن إذكاء النار الإلهية وإضرامها أمر ثمين جداً، وهو ضمان أكيد لملكوت الله. والله وعد أن يُعطي الروح القدس للصارخين إليه ليل نهار، هنا يُحرِّضنا المسيح أن نختبر وعده وأمانته.

وإذا أُقمعت الغريزة مرة، سهل إقماعها مرتين، والذي يقمعها مرتين تخضع له كما يخضع الأسد لمروِّضه. وكلما كان الراهب صادقاً في جهاده، خضعت له كل حواسه وغرائزه، ليتزكَّى وعد الله ويفرح الإنسان بأمانة فاديه.

والذي خضعت له غرائزه، يُدرك عِظَم فخر الدعوة المقدسة للحياة مع المسيح، كما في زيجة روحانية عالية القدر، فلا تعود روحه فقط التي تتنعم بحضرة الرب وشهوة الحديث إليه في شركةٍ بسرٍّ لا يُنطق به؛ بل والجسد أيضاً ينعم براحة وسلام في قناعة لا يشوبها إحساس بحرمان.

٣. التعويض الروحي عن حنان الأب للأولاد:

حيث ليس هو في الحقيقة تعويضاً؛ بل ارتقاءً لِمَا هو أفضل وأعم:

هذا وعد إلهي من فم الله: «فلا يتكلَّم ابن الغريب الذي **اقترن** بالرب قائلاً: إفرازاً أفرزني الرب من شعبه. ولا يَقُل الخَصِيُّ ها أنا شجرة يابسة، لأنه هكذا قال الرب للخصيان الذي يحفظون سبوتي ويختارون ما يسُرُّني ويتمسَّكون بعهدي، إني أُعطيهم في بيتي وفي أسواري نُصُباً واسماً أفضل من البنين والبنات، أُعطيهم اسماً أبدياً لا ينقطع.» (إش ٥٦:٣-٥)

هنا وعد الرب واضح أنه للذين اختاروا أن **يقترنوا** بالرب، ثم خصَّصهم الرب بعد ذلك كالخصيان، والذين حدَّدهم المسيح في العهد الجديد بالذين جعلوا أنفسهم خصياناً من أجل ملكوت الله. الوعد هنا ينصبُّ على عطايا، يقول الرب إنها أفضل من البنين والبنات. هنا ينكشف فكر الرب أنها عطايا روحية تُسعد قلب الإنسان وتفرحه وتعزيه أفضل من عزاء الأب بأولاده. هنا الأفضلية تنصبُّ على المواهب الروحية التي تُلذِّذ الروح. وبهذا يبطل في الحال أيُّ إحساس بالحرمان أو النقص، لأنه إذا شبعت الروح بَطُلَ جوع النفس وتوقَّف الإلحاح لطلب الجسد؛ فملء الأعلى يصبُّ في نقص الأسفل. هنا الله يجعل المفاضلة تنحاز إلى جانب الروح، طالما اقترنت بالله لتسد حاجة الجسد وتغطِّي عوز النفس.

الوعد الإلهي يقف في صف الراهب الذي يطلب وجه الله ويلحُّ

على أن لا يخرج من حضرته، وأنه لن تعوزه عاطفة ولن يخذله الله فيما هو طالبٌ وجهه، فيصبح عقم الجسد أساساً لانطلاق خصب الروح. هنا عَوَّض الغرائز الطبيعية لتشتعل المواهب الروحية، ليتثبَّت للراهب اسمٌ جديدٌ أفضل من البنين والبنات، اسمٌ أبديٌّ لا ينقطع، منقوشٌ بإصبع الله على أسوار أورشليم، يُنادَى به وسط قديسيه. وبقدر ما كانت تعمل الغرائز الطبيعية من نحو الأولاد لقيام الحياة البشرية، تعمل المواهب الروحية وفي نفس الميدان مائة ضعف لحساب ملكوت الله.

٤. التعويض الروحي عن طبيعة الأُبوَّة المخصَّصة لحمل مسئولية الأسرة في نشاط باذل ومضحِّي:

حيث ليس هو في الحقيقة تعويضاً؛ بل ارتقاءً لِمَا هو أفضل وأعم:

هنا أيضاً، عِوَض الغرائز المخصَّصة في الإنسان لخدمة أسرته، والتي لا يهدأ الأب حتى يُشبعها ويكمل عملها، يوهَب الإنسان فيضاً من قوة غير محدودة وموهبة أُبوَّة متسعة لا تستنفد طاقتها خدمة العالم بأسره. ليس مصدرها الغريزة ولا هدفها إشباع الذات لطبيعة الأُبوَّة؛ بل مصدرها المسيح العامل والمُريد فينا كأب للبشرية كلها. من هنا كان إصرار بولس الرسول على الدعوة لعدم الزواج، لكي يتفرغ الإنسان للرب ليُرضي الرب العامل فيه لخدمة الجميع ـ كل إنسان ـ بلا تمييز، في غيرة متَّقدة كالنار: «مَنْ يضعف وأنا لا أضعف. مَنْ يعثر وأنا لا ألتهب» (٢كو ١١: ٢٩)؛ وفي حنان الأُمومة التي أولادها على

المُشاع من كل صنف: «كُنَّا مترفِّقين في وسطكم كما تُربِّي المُرضعة أولادها، هكذا إذ كُنَّا حانِّين إليكم، كُنَّا نَرْضَى أن نُعطيكم، لا إنجيل الله فقط بل أنفسنا أيضاً، لأنكم صرتم محبوبين إلينا» (١تس ٢:٧و٨). وليس هو موضوع ترفُّق وحنو وعطف وحسب؛ بل هو تعب وكدٌّ وعمل وخدمة وبذل: «فإنكم تذكرون أيها الإخوة تعبنا وكدَّنا، إذ كُنَّا نكرز لكم بإنجيل الله، ونحن عاملون ليلاً ونهاراً كي لا نُثقِّل على أحدٍ منكم.» (١تس ٢:٩)

هنا بَذْل مع حُبٍّ مع تعبٍ وكدٍّ مع عمل، لا على مستوى إرضاء غريزة أُبوَّة ولا إشباع مسئولية أبوية؛ بل موهبة أُبوَّة فائقة الحدّ والوصف تدفعها قوة إلهية فيها حنان وحب الله نفسه، اسمع القديس بولس الرسول وهو يصف نهمه في تحمُّل الآلام والمشقات على مثال المسيح نفسه، بل ولحسابه: «الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأُكمِّل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة.» (كو ١:٢٤)

إذن، فقد تحوَّلت غرائز نشاط الأُبوَّة، التي تعمل في محيطها الضيق حسب محدودية الإنسان، إلى قوة خدمة عارمة تستهين بالآلام وتستعذبها، وبلا تحفُّظ، لحساب المسيح والإنجيل والبشرية بلا تمييز.

هذا هو التحوُّل من الأُبوَّة الجسدية إلى الأُبوَّة الروحية التي دخلها الراهب من بابها الضيق، ليخدم بلا اختيار ولا تحديد ولا هويَّة ولا هواية ولا غرض ولا استعراض ولا عِوَض ولا أجر ولا راحة ولا

مسرة ذاتية. ونجاح خدمته مرهون بقدرته على تحمُّل شدائد العمل وضيقاته ومهانته، كالقديس بولس أو كالمسيح: «كونوا مُتمثِّلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو ١١:١). هنا انطلاق الخدمة والبذل، ليس على مستوى غرائز الأُبوَّة الطبيعية ولا تحت إلحاحات العوز في الأسرة؛ لذلك لا يدخل تحت البذل النفساني أو النشاط الغريزي للإنسان؛ بل ارتقاء بالخدمة ذاتها وسمو يتناسب مع موهبة ائتمان الله للإنسان أن يعمل باسمه ولحسابه: «الذي صرتُ أنا خادماً له حسب موهبة نعمة الله المُعطاة لي حسب فعل قوته.» (أف ٧:٣)

فالراهب إذا لم ينطلق بروحه من قيود غرائزه الأُسرية، فهو يعمل وينشط ويبذل؛ ولكن بغيرة غريزية وتحت إلحاح طبيعة قديمة تعمل لإرضاء الذات وفي حدود ضيِّقة لا يحتمل أن تُستزاد له أو تتغير إلاَّ حسب هواه. وهكذا شتَّان بين عمل تتحكم فيه الغرائز وعمل تدفعه نعمة الله بقوة إلهية وغيرة ومحبة وفرح لا ينضب، لأن مصدر الدفع إلهيٌّ وليس بشرياً.

٥. التعويض الروحي عن توريث الذات وغريزة حُبِّ البقاء في الدنيا: وهذا ليس في الحقيقة تعويضاً؛ بل ارتقاءً بالروح:

الراهب ترك العالم الأرضي قولاً وفكراً وعملاً، وهو بحسب القانون المدني لا يرث ولا يُورِّث. هذا هو وضعه الرسمي، لأنه صار محسوباً عضواً في العالم الآخر في الحياة الأبدية، مواطناً سماوياً لوطنٍ أفضل، وأفضل لأنه أبقى. وهو بهذا قطع علناً كل نصيبه على الأرض

وتفرَّغ ليُحارِب حروب الرب ضد أعداء غير منظورين.

الراهب ترك أسرته وأهله وعشيرته، فأصبح لا أُم له ولا أب، ولا إخوة ولا أخوات، ولا زوجة ولا أولاد؛ لأنه دُعِيَ ليكون واحداً في رعية القديسين وأهل بيت الله. ولم يتركه الرب هكذا يتيماً؛ بل يدعوه ليتراءى أمامه كل حين. وهو تفرَّغ لهذا ليفرح ويدوم فرحه إلى الأبد ولا يستطيع أحد، بعدُ، أن ينزع فرحه منه، لأن سحابة الشهود تعزيه ليجاهد كشريك معهم.

وهكذا قطع الراهب امتداد وجوده في العالم وفَقَدَ بإرادته ميراثه، وبالتالي توريثه لِمَا عنده لأن ليس مَنْ يأخذ منه، وذلك ليرث ملكوت السموات. فهو لم يَعُدْ ابناً لأبيه الذي ولده بالجسد؛ بل ابناً لله في المسيح: «الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله. فإنْ كُنَّا أولادًا فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح.» (رو ٨: ١٦و١٧)

الغرائز الطبيعية في الإنسان الطبيعي تلحُّ عليه وتسود على كل فكره وعمله لكي يعمل بكل الوسائل ليُخلِّد نفسه في العالم، فهي غرائز حب البقاء والاستمرار على تراب الأرض، ولكن في المسيح يسوع صارت الدعوة لميراث ملكوت السموات مع المسيح في الله. ولكن الذي يحب العالم ليست فيه محبة الآب. الراهب لَمَّا سمع ذلك قطع قلبه من العالم وأبغضه بكل نعيمه وأفراحه، وتمَّم الوصية: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم... والعالم يمضي وشهوته، وأما الذي

يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١يو ٢:١٥و١٧). هكذا ترك الراهب، عن رِضا وعزم وتصميم، ترك الذي يتزعزع وانطلق يطلب ملكوتاً لا يتزعزع ولا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظاً في السموات، وغاية أمله ورجائه أن يعمل مشيئة الله إلى أن يلقاه.

ولكن ليس هذا الأمر، أمر ميراث الحياة الأبدية، ينحصر في فكرة أو إرادة أو مشوار يوصِّلنا إلى عتبة الدير، ولكن الأمر أخطر من ذلك جداً، فهو يتعلَّق بغرائز مغروسة في أعماق أعماق كيان الإنسان، سوف تظل تطلب أن ترث العالم وتورِّث ذاتها فيه حتى داخل الدير. لذلك، إذا لم تثبت الثانية فلا خلاص من الأولى، أي إذا لم نمسك بالحياة الأبدية **بكل قلوبنا، وكل أفكارنا، وكل قدرتنا**، فإن العالم سيجذبنا من خلال غرائزنا لنخدمه ونسلِّمه أنفسنا في جهالة وحماقة دون أن ندري، حتى بأعمالنا الروحية، فنعظ ونخدم ونحب الإخوة ونبذل أقصى طاقتنا مدفوعين بغريزة توريث ذواتنا لآخرين لنبقى فيهم وندوم على الأرض في أشخاص مَنْ حملوا صورتنا في كيانهم. الخدعة هنا ماهرة بل قاتلة، لأن الغريزة استطاعت أن تستخدم الروحيات لحساب التراب.

لذلك يلحُّ الكتاب أن زمان غربتنا هنا يحكمه الجهاد، لئلا يُسرق إكليلنا، ولكن لا أحد يستطيع أن يخطفه مِنَّا، ولكن الخطر هو أننا نُسلِّمه بأيدينا للتراب. وعندما نُسرق من غرائزنا، نحوِّل جهدنا وبذلنا وحبَّنا وخدمتنا الروحية لتخدم بقاء الذات ودوامها على الأرض. فهل

الخدمة خاطئة أو هي خطية للراهب؟ حاشا! بل السؤال الكاشف والفاضح هو: **مَنْ قال لك اخدمْ؟ ومَنْ أرسلك؟**

في العالم، الآن، أصبح كل واحد يُرسل ذاته للخدمة، مع أن الكتاب صريح في هذا: «كيف يكرزون إنْ لم يُرسَلُوا» (رو ١٠: ١٥)؟ والمبني للمجهول هنا هو الله الذي يُرسِل، وقبل أن يُرسِل يُقدِّس.

الراهب لم يدْعُه أحدٌ للرهبنة؛ بل الله. فالرهبنة هي عمله وخدمته. والرهبنة والدير كله موضع الصلاة الدائمة والحكمة العالية لمنفعة خلاص الراهب ومعه العالم كله. الدير ليس مكان تبشير ولا مكان دعوة للخلاص. فالرهبان جميعاً، حتى ابن اليوم الواحد، هو على هذا المستوى بعينه، وإنما دخل الدير ليتحصَّن بالصلاة والصوم والسهر والتسبيح كطقس الملائكة. فليس في الدير خادم ومخدوم؛ بل الكل يُصلُّون، وبعد الصلاة يصلُّون، ولا يزالون يصلُّون ويقدِّمون توبة حتى إلى باب القبر!!

الجهاد في الدير هو ضد الذات القادرة والقديرة أن تحرم الإنسان من كل سعيه وغاية أمله، إنْ هي طلبت البقاء والخلود على تراب الأرض؛ وذلك حينما تطلب ما لذاتها. لهذا يلحُّ علينا القديس يوحنا الرسول صاحب سفر الرؤيا بفم المسيح: «مَنْ يغلب يرث كل شيء، وأكون له إلهاً وهو يكون لي ابناً» (رؤ ٢١: ٧). ثم ماذا يغلب الراهب؟ إلا العالم الذي لا يزال يشدّه نحو التراب من خلال غرائزه! وماذا يرث إذا غلب؟ إلاَّ المسيح نفسه! فحينما أراد المسيح أن يُدخِل

في قلبنا الشجاعة والقوة ضد العالم، طمأننا بقوله: «ثقوا (أصلها في اللغة اليونانية: ''تهلَّلوا'') أنا قد غلبت العالم» (يو ١٦:٣٣). لم يَقُلْ المسيح: ''أنا قد غلبت الشيطان''، لأن الشيطان لا يُحاربنا إلا **بالعالم!!!** حبُّ العالم، شهوة العالم، غريزة البقاء في العالم. فحينما أراد بطرس أن يُثني المسيح عن الموت عن العالم، قال له المسيح: «اذهب عني يا شيطان. أنت مَعْثَرةٌ لي، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦:٢٣). هكذا قيَّم المسيح الاهتمام بالله بأنه موت عن العالم. أليس على هذا الأساس قال: «إن أراد أحدٌ أن يأتي ورائي (إلى السماء) فليُنكر نفسه ويحمل صليبه (موته) ويتبعني!!» (مت ١٦:٢٤)

كان الآباء الرهبان الحكماء، الخالدون الآن في السماء، يردُّون على الإخوة الرهبان حينما يطلبون كلمة واحدة للمنفعة بقولهم: ''اذهب إلى قلايتك، وارْهن ظهرك لبابها، وهي تعلِّمك كل شيء''. هذه هي الكرازة الوحيدة التي تُخلِّص الراهب.

وقد سأل راهبٌ ناسخٌ جيدُ الخط شيخاً حكيماً في خلاص النفوس هذا السؤال: ''عندي كتاب مقدس بعهديه متقن وجيد النساخة، هل أتركه للآباء الرهبان ليقرأوا فيه ويتعزّوا أم ماذا''؟ فقال له: ''اذهب وبعْهُ وأعطِ ثمنه للفقراء، وهو يبقى لك كنزاً في السموات''! أي إن الكرازة بالخلاص للراهب الناسخ هي في أن يبيع، والكرازة لباقي الرهبان ليست على عاتق الناسخ الجيد وما ينسخ؛ بل على تجرُّده كمَثَلٍ ونموذج.

ليت رهبان هذه الأيام ينشغلون بميراث ملكوت السموات، كلٌّ في قلايته، حتى يعبروا أخطر المعوِّقات نحو الحياة الأبدية، وهو سلطان الغرائز التي تعمل في ظلمة المعرفة وتُقيِّد الجبابرة وتلقيهم في تراب الأرض؛ إنْ لم يكن بحب الكرامة فبحب السيادة، وإنْ لم يكن بحب العالم فبحب البقاء والدوام فيه. أما الذي يَعْبُر هذا السلطان المظلم، فهو الذي يستطيع أن يقول مع القديس بولس الرسول: «شاكرين الآب الذي أهَّلنا لشركة ميراث القديسين في النور، الذي أنقذنا من سلطان الظلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته.» (كو ١:١٢و١٣)

(١٩٨٥)

الأب متى المسكين

توجيهات رهبانية

صدر منها:

(١) التحوُّلات الروحية السويَّة في حياة الراهب ومواطن الإخفاق والنكوص.

(٢) إرشادات روحية للرهبان.

(٣) توجيهات ونصائح رهبانية.

اقرأ في نفس الموضوع:

١. حبة الحنطة.

٢. اختبار الله في حياة الراهب.

٣. نصائح لرهبان جُدُد.

٤. حاجتنا إلى المسيح.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك – تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو من مكتبة الدير

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org